**عاشرا- جماليات السرد في النص الشعري القديم:**

يطول الحديث عن أهمية الشعر في الحياة العربية قبل ظهور الإسلام وبعده وعن التقدير الذي كان يحظى به الشاعر ومكانته في قومه وفي الناس أجمع. تقدير ومكانة فيهما من التبجيل والإعجاب بقدر ما فيهما من الخوف والممالئة بحثا عن مدحة أو إتقاء لهجوة.

تمتّع الشعر بهذه المكانة وحظي بهذه الأهمية لأنه كان الصناعة الفكرية الأساس لدى العرب، صناعة تقوم عليها صناعات أخرى وتتغذى منها وتستمت منها شرعيتها ومبرر وجودها كالرواية والنقد. إضافة إلى تخليد المآثر، يقول الجاحظ في هذا: "وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليد (مآثرها) بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفّى وكان ذلك هو ديوانها"، وأكد هذا الكلام السيد محمود شكري الآلوسي إذ قال: "من تتبع شعر العرب واستقراه، ووقف على ما قالوه من مثل واستقصاه، تبين له ما كان للعرب الأولين من اليد الطُّولى والقدم الراسخة في معرفة أخبار الأمم الماضيين وأخلاقهم وسيرهم ولاسيما شعرهم فهو سجل أخلاقهم وخزانة معارفهم ومستودع علومهم وحافظ آدابهم ومرجعهم عن الاختلاف... فلذلك قيل: الشعر ديوان العرب..." هذه الأهمية حقيقة معروفة منصوص عليها.

لذا فإن ما يهُمنا منه في هذا المقام، هو كون الشعر أحد الأوعية الحاملة للقصص العربي وأحد مصادره بما تضّمنته نصوصه من أخبار وإشارات جلية أو ضمنية إلى حوادث ووقائع عاشها الناس أفرادا أو جماعات، وهذا رغم سيادة الاعتقاد بغنائية الشعر العربي والسكوت عن البعد القصصي فيه الذي بقي منظورا إليه دائما كمظهر ثانوي، ومنه فإن النظر في كثير من القصائد والمقطعات جاهليتها وإسلاميها، يطالعنا ببعدها القصصي حتى وإن لم يكن هذا البعد مقصودا لذاته وهو كذلك أحيانا كثيرة، لأنه يأتي عرضا وبصورة غير مباشرة خدمة للغرض الأساس الذي قصد إليه الشاعر فخرا كان أم مدحا أو هجاء أو رثاء أو ما سوى ذلك؟ من أغراض الشعر العربي وهو ما يؤكده بعض الدارسين، "فلا الجاهلية ولا الشعراء الذين جاءوا بعد الدين الحنيف قصدوا أن يكتبوا قصة فيما ينظمون من شعره، ومن الدارسين من يذهب بعيدا في هذا المجال عندما يجزم "بل إن فكرة القصة لم تكن لترد على أذهانهم جميعا"، على كل حال يؤدي بنا هذا إلى القول بأن المادة القصصية والأخبار الواردة في الشعر العربي عن قصد أو عن غير قصد منذ أقدم ما وصلنا منه إلى نهاية الفترة التي حدد بها السرد القديم**([[1]](#footnote-2))**.

ونكتفي بالإشارة هنا إلى القصص الموجود في بعض القصائد التي ينحو فيها قائلوها إلى رواية مغامراتهم، أو الإشارة إليها كحال معلقة أمرئ القيس مثلا، أو التي تساق فيها الأحداث عامة معينة تتجاوز الفرد الواحد (الشاعر) إلى الجماعة كحال معلقة زهير عندما تحدث فيها عن حرب داحس والغبراء وما قام به هرم بن سنان والحارث بن مرة من السعي في الصلح بين المتحاربين وتحمّل ديات القتلى، أو ما ورد في معلقة عمر بن كلثوم وهو يوجه كلامه لعمر بن هند ملك الحيرة (ولغيره أيضا) من أخبار جلية أو ضمنية عن شجاعة قومه في معاركهم مع غيرهم من القبائل، وما إليها من الأشعار المروية في ثنايا أخبار أيام العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام إلى ما هو موجود في بعض القصائد التي يسوق فيها قائلوها قصصا وأخبارا عاشوها أو عاينوها أو كانوا شهودا عليها أو علموا بها كحال قصيدة الحطيئة التي يروى فيها قصة الأعرابي الكريم الذي اعتزم ذبح إبنه لقِرى ضيفه لولا قطيعا من الحُمُر الوحشية مرّ قريبا من خيمته فأصاب أحدها ذبحه وتعشىّ به هو وضيفه وعياله، وغير هذا كثير جدا، هذا عدا رواية بعض الشعراء لمغامراتهم العاطفة وغرامياتهم مما يمكن أن يكون تجسيدا لأحاديث الهوى والتشبب التي كان الجاهليون يروونها ويتناقلونها سيما الشباب منهم... ثم من أتى بعدهم.

من هذا النوع على سبيل المثال إضافة إلى أمرئ القيس في الجاهلية، حميد بن ثور وعمرو بن أبي ربيعة في صدر الإسلام ومعظمهم إشعاره قصص من هذا القبيل امتاز فيها بإفراد كثير فيها كلية لمغامرة أو لخبر أو أخبار متصلة بشخص أو بموضوع واحد.

ونغتنم الفرصة لنشير في هذا المقام إلى ما يذهب إليه بعض الدارسين (المستشرقين على وجه الخصوص) من خلو الشعر العربي من أي أثر لشعر القصصي أو التمثيلي، وهم إنما يبنون هذا الرأي قياسا بما يجدونه في التراث اليوناني وعابوا غيابه في الشعر العربي، ولا يخفى بطبيعة الحال ما في هذا من الرأي من خطأ وهذا الفرق بين البيئتين العربية واليونانية.

إننا نرى أن خلو الشعر العربي من القصص الطويلة ذات النفس الملحمي أو قلّته فيه لا يعني خلوه من القصص إطلاقا، كما لا يمكن اتخاذه دليلا على نقص في التراث العربي مطلقا، بل إن العكس هو الصحيح فقد قامت قصائد كاملة على القص، كقصائد عمر بن أبي ربيعة ومثالها رائيته الشهيرة.

**أَمِن آلِ نُعمٍ أَنتَ غادٍ فَمُبكِرُ غَداةَ غَدٍ أَم رائِحٌ فَمُهَجِّرُ**

بل إن معظم شعره قصص، ومن هذا القبيل أيضا قصيدة الحطيئة الذي قدم في إحدى قصائده حكاية كاملة للكرم العربي في أبهى صورة، فقال في مطلع حكايتها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **وَطاوي ثَلاثٍ عاصِبِ البَطنِ مُرمِلٍ أَخي جَفوَةٍ فيهِ مِنَ الإِنسِ وَحشَةٌ وَأَفرَدَ في شِعبٍ عَجُوزاً إِزاءها حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة رَأى شَبَحاً وَسطَ الظَلامِ فَراعَهُ فَأَمهَلَها حَتّى تَرَوَّت عِطاشُها فَخَرَّت نَحوصٌ ذاتُ جَحشٍ سَمينَةٌ فَيا بِشرَهُ إِذ جَرَّها نَحوَ قَومِهِ فَباتَوا كِراماً قَد قَضوا حَقَّ ضَيفِهِم** |  | **ببيداءَ لَم يَعرِف بِها ساكِنٌ رَسما يَرى البُؤسَ فيها مِن شَراسَتِهِ نُعمى ثَلاثَةُ أَشباحٍ تَخالُهُمُ بَهما ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما فَلَمّا بَدا ضَيفاً تَشمَّرَ وَاِهتَمّا فَأَرسَلَ فيها مِن كِنانَتِهِ سَهما قَدِ اِكتَنَزَت لَحماً وَقَد طُبِّقَت شَحما وَيا بِشرَهُم لَمّا رَأَوا كَلمَها يَدمى فَلَم يَغرِموا غُرماً وَقَد غَنِموا غُنما** |

وقصيدة الفرزدق، التي يروي فيها قصته مع الذئب ومطلعها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **وَأطْلَسَ عَسّالٍ، وَما كانَ صَاحباً،  فَلَمّا دَنَا قُلتُ: ادْنُ دونَكَ، إنّني** |  | **دَعَوْتُ بِنَارِي مَوْهِناً فَأتَاني وَإيّاكَ في زَادِي لمُشْتَرِكَانِ** |

يمثل السرد لحظة متميزة داخل الشعر القصصي، أما الهيمنة فتحظى بها التوازيات الدلالية والموسيقية ونظام الصور المجازية، وإن حدة الموسيقى والكثافة الصوتية تحول الشعر إلى عالم قصصي.

يمثل القصصي ملتقى لغتين وصوتين، إحداهما سردية والأخرى شعرية، مما يدفع إلى القول إن الأنماط الأدبية تتلاقى وتتعايش داخل النوع المفرد دون أن تفقد خصوصيتها النوعية وهذا ما ظهر عند الكثير من الشعراء، كأبي تمام الذي يقص علينا الملامح الشعرية التي أراد أن يوصلها إلينا باستخدام شاعرية عظيمة وملكة كبيرة، ولهذا كان أبي تمام من أفحل الفحول في العصر العباسي.

والمقصود بالبناء السردي في القصيدة، أن الصورة الكلية تكون مبنية على«حكاية حدث أو أحداث متعددة تتسلسل في ترتيب معقول وتتابع واضح سواء في الأحداث أم التصوير»

أي أن القصيدة تضم في بنائها اللغوي والفني أشخاصا وأحداثا، وكذلك تناوبا بين السرد والحوار أحيانا في شكل الدراما البسيطة فهذا الضرب من البناء الشعري يقوم على سرد قصة تشمل على الشخصيات والأحداث والحوار**([[2]](#footnote-3))**.

1. () ينظر: إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم الأنواع، الوظائف، البنيات، ط1، دار الاختلاف الجزائر، 2008، ص75. [↑](#footnote-ref-2)
2. () ينظر: إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم، ص76. [↑](#footnote-ref-3)